وقفة على جسر اسمعيل

للاستاذ عبد الحميد العبادي

اذا حق لبغداد ان تباهي في غابر أيامها بدان العالم بحسرها الاكبر الذي كان معقوداً فوق دجلة ، والذي يقول فيه علي بن الجهم:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

واذا كانت « فروق » عاصمة الترك من آل عثمان تذوب حياء وخجلا كلما أنشد قول شوقي في جسرها المتهدم المتساقط :

أمين المؤمنين رأيت جسرا أمر على الصراط ولا عليه

فمن حق القاهرة أن تسحب الذيل تيها وافتخارا بجسر اسمعيل فهو من غير شك أعظم من جسر بغداد وأروع ، وهو لم يظفر بمثله بلد عظيم ظل متبوع مصر أحقابا طوالا .

* * *

نشدتك الله أيها القارىء ، الا ماوقفت مرة بذلك الجسر في أي وقت شئت ، وعلى أي حال كنت . قف بكرة ، أو ضحى ، أو أصيلا . قف في الهزيع الأول أو الثاني من الليل . قف صيفا ، أو خريفا ، أو شتاء ، أو ربيعا . قف في مقتبل السن ، أو كهلا قد توسط الحياة ، أو شيخا نالت منه السنون ؛ فانا زعيم لك بانك واجد جمالا يملأ الجوانح ، وحسنا يستغرق العقل . هنا الجمال ! هنا الروعة ! هنا الفتنة ! هنا قطعة من رياض الجنة ، أهبطها الله الأرض ثم أباحها الناس جميعا ، يستمتع بها الغوي والمهتدي ، والمقتصد في أمره ، ومن كان على نفسه مسرفا .

* * *

جسر رشيق التكوين ، موزون الأبعاد ، يساير الشمس من مشرقها الى مغربها ، والقمر من لدن بزوغه الى أفوله . فأن غابت الشمس وأبطأ القمر فالدلج السارى عوض عنهما في السرج الوهاجة القائمة على جانبيه ترسل نورا هادئا ليناً لايفرق البصر ولايحسره . حتى كأن الكواكب قد دنت فتدلت ، فاختار منها مهندس ذلك الجسر ماشاء ، ثم نظمه سمطين على حافتيه .

ثم هو لاتهدأ عنه الرجل ساعة من ليل أو نهار . ففي النهار ترى افواج الساعين في الأرض تتدافع فوقه بالمناكب والمراكب . فاذا تصرم النهار ، وطفلت الشمس للغروب ، رأيت المستروحين المتنزهين يغشونه زرافات ووحدانا ، يلتمسون طيب الهواء ، وجمال المنظر ، وبهجة الخاطر . فاذا اختلط الظلام وأرخى الليل سدوله بات الجسر مستراداً ومذهبا لقصاد الجزيرة من العابثين اللاهين ، والعشاق المدلهين . سيماهم حديث مغمغم ، ورءوس متساندة وأصابع مشتبكة ، وخطى مضطربة ، قد لفهم أليل من نور القمر أو المصباح في مثل الكلة المخرمة تبين ما اشتملت عليه وتستره ، وتخفيه وتظهره ، على ان كلا آمن مطمئن كأن تلك الاسود المقعية عند طرفي الجسر أرصاد موكلة بحراسة الجسر ورواده .

ثم ارم ببصرك ذات اليمين وذات الشمال . فهذا النيل اكثر انهار الارض بركة . وأحفلها بالذكرى ، ينساب متدفقا مترفقا ، يصافح متنه نسيم السحر فيحيله وشيا منمنما ، وتصب عليه الشمس اشعتها الفضية والذهبية فتحيله تارة لجينا سائلا وأخرى ذهبا مذابا . حتى اذا غربت الشمس وتألق الافق وانعكست فيه صور النجوم والمصابيح التي تكتنفه من كل نواحيه ، رأيت المجرة بين يديك ، ان شئت خضتها خوضا ، وان شئت لججت فيها تلجيجا .

وهذه الجزيرة تعترض الافق الغربي بنخلها الذاهبة في السماء ، واشجارها الجاثمة على الأرض ، وبنورها الضاحك وطيرها الصادح كأنها هي حجة بليغة على ما بقبالتها من معاهد وديار يهيب بها كل ماحولها ان « ليس هذا بعشك فادرجي » ومع ذلك فقد أعدت هذه الدار والمعاهد عدوى الحسن المجسم أمامها فأكسبتها رقة مدنية ، وخلعت عليها مسحة من جمال تعرفها في الدار والديار .

* * *

كل جزء من أجزاء هذا المنظر الفخم يسر اليك نجوى ، ويتلو عليك نبأ . فهذا الجسر يصور لك الحياة معرفة بين نكرتين ، ومعلوما بين مجهولين . وهذه الخلائق التي تتصرف فوقه آناء الليل واطراف النهار ، عملا ، واستراحة ، ولهوا ، كأني بها تحدثك بان لا بأس علينا من أعمالنا متى صدرت مطاوعة لحاجات نفوسنا . وهذه الجزيرة التي يبدو لك بالنهار نخلها وشجرها عرائس تونق العين وتفتن القلب ، فاذا أظلم الليل تراءت فوق الأفق شخوصا واشباحا توحشك وتروعك ، كأني بها تقضي اليك بان للظواهر دون الحقائق الأثر الأقوى في توجيه حكمنا على الاشياء . وهذه الشكنات الغاصة بالجند والملأى بالسلاح ، ماعبرتها وما يانها ؟ استمع اليها تخبرك لمن كانت امس ، ولمن هي اليوم ؟ وتنشدك قول شجرة عدي بن زيد :

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

أما النهر الدافق ، والجو الرائق ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، فتلك كلها السنة تهتف بأن العزة والدوام لله وحده ؟